الفصل الأول

ما الذى يميز العقل البشرى ؟

عقلى وعقل الآخرين :

هل يمكننا قط أن نعرف حقا ما يدور فى عقل شخص آخر ؟ هل يمكن لامرأة أن تعرف قط كيف يكون الحال كرجل ؟ ما هى الخبرات التى ينالها الطفل فى طفولته ؟ ما هى الخبرات التى ينالها الجنين فى رحم أمه ، إن كان لهذه الخبرات وجود ؟ ماذا عن العقول غير البشرية ؟ ما الذى تفكر فيه الخيل ؟ لماذا لا تحس النسور بالغثيان من الجثث المتعفنة التى تأكلها ؟ عندما تجد السمكة صنارة مشتبكة فى شفتها هل يؤلمها ذلك بالدرجة التى نتألم بها نحن لو اشتبكت صنارة فى شفتنا ؟ هل يمكن للعناكب أن تفكر ، أو أنها فحسب روبوتات دقيقة الحجم ، تصنع شباك عشها الرائع بلا تفكير ؟ وفى هذا الشأن ، لماذا لا يستطيع الروبوت – عندما يكون ممتازاً بالدرجة الكافية – أن يكون واعياً ؟ توجد روبوتات تستطيع أن تتحرك فيما حولها وتتعامل مع الأشياء بما يكاد يماثل العناكب فى مهارتها ؛ هل يمكن لروبوت أكثر تعقدا أن يحس بالألم ، وأن يشعر بالقلق بشأن مستقبله ، بمثل ما يستطيع أحد الأشخاص أن يفعله ؟ أو أن هناك فجوة لا يمكن تجسيرها تفصل بين الروبوتات وبين تلك الحيوانات التى لها عقول . هل يمكن حقا أن تكون كل الحيوانات ، فيما عدا البشر ، روبوتات بلا عقل ؟ اشتهر رينيه ديكارت بتأييد هذا الرأى فى القرن السابع عشر . هل يمكن أنه كان مخطئا كل الخطأ ؟ هل يمكن أن تكون كل الحيوانات بل والنباتات – وحتى البكتريا – لها عقول ؟

أو عندما ننقلب إلى الطرف الأقصى الآخر ، هل نحن جد واثقين من أن كل أفراد البشر لهم عقول ؟ وعندما نتخذ أقصى الحالات كلها، هل يمكن للواحد منا أن يكون العقل الوحيد فى هذا الكون ؛ ولعل كل فرد آخر هو مجرد ماكينة بلا عقل . هذه فكرة ربما خطرت للكثيرين ، بل ولعلهم تفكروا فيها مليا وهم أطفال. وهؤلاء كثيراً ما يضحكون عندما يعرفون أن هذا فرض فلسفى شائع حتى أن له اسم وهو «Solipsism = وحدانية الأنا» (عن اللاتينية بمعنى «أنا وحدى») وفى حدود ما نعرف ، ما من أحد قط يأخذ مذهب وحدانية الأنا مأخذا جديا لزمن طويل، ولكنه يثير بالفعل تحدياً مهما : «إذا» كنا نعرف أن وحدانية الأنا مذهب سخيف – «إذا» كنا نعرف أنه توجد عقول أخرى – كيف عرفنا ذلك ؟

ما هى أنواع العقول الموجودة ؟

وكيف نعرف ذلك ؟ إن السؤال الأول يدور حول ما يوجد – أى عن

obeikandl.com

الأنطولوجيا(*) بطريقة التعبير الفلسفى ؛ والسؤال الثانى يدور حول معرفتنا – أى حول الابستمولوجيا(**) . وكثيراً ما يحذّر الفلاسفة من خلط الأسئلة الانطولوجية بالأسئلة الابستمولوجية . وهم يقولون أن ما هو موجود شىء وما يمكن أن نعرفه عنه شىء آخر . وهذه النصيحة العامة جيدة ، على أننا نعرف عن العقول ما يكفى لأن نعرف أن أحد الأمور التى تجعلها تختلف عن أى شىء آخر فى الكون هو «الطريقة» التى نعرف بها شأن هذه العقول . وكمثل فأنت تعرف أن لديك عقلا وتعرف أن لديك مخا ، إلا أن هذين نوعان مختلفان من المعرفة : فأنت تعرف أن لديك مخا بالطريقة التى تعرف بها أن لديك طحالا : أى بالسماع . فأنت لم تر أبداً طحالك ولا مخك ؛ ولكن حيث أن كتب المراجع تخبرك بأن كل البشر الطبيعيين لديهم مخ وطحال ، فإنك تستنتج بما يكاد يكون مؤكداً أنك أيضاً تمتلك كليهما. ولكن علاقتك بعقلك حميمة أكثر من ذلك – علاقة حميمة بدرجة يمكنك حتى أن تقول معها أن عقلك هو ما «تكونه» . (وهذا هو ما قاله ديكارت : فقد قال أنه عقل أو «شىء مفكر») . وقد يخبرك كتاب أو مدرس عما يكونه العقل، ولكنك لست بحاجة لأن تأخذ بكلمة أى شخص عن الدعوى بأن لك عقل . ولو حدث لك أن أخذت تتساءل عما إذا كنت طبيعيا ولك عقل مثل ما للناس الآخرين، سوف تدرك فى التو ، كما بيّن ديكارت، أن نفس تساؤلك هكذا يثبت فوق كل شك أنك حقا لديك عقل .

وهذا يطرح أن كل واحد منا يعرف بالضبط عقلاً واحدا من الداخل ، ولا يوجد اثنان منا يعرفان نفس العقل من الداخل . وليس من شىء آخر يُعرف شأنه بهذه الطريقة . على أن هذا النقاش كله قد أجرى حتى الآن بلغة من كيف نعرف «نحن» – أنت وأنا . فهو يفترض مسبقاً أن وحدانية الأنا مذهب خطأ . وكلما زدنا – نحن – تأملا فى هذا الفرض المسبق ظهر لنا أنه لا يمكن تجنبه . فلا يمكن أن يوجد فقط عقل واحد – أو على الأقل عقل واحد فقط مثل عقولنا «نحن» .

نحن أصحاب العقول ، نحن المفكرون :

إذا أردنا أن ننظر فى السؤال عما إذا كان للحيوانات غير البشرية عقول ، فإن علينا أن نبدأ بالسؤال عما إذا كانت لها عقول تشبه عقولنا من بعض الأوجه ، حيث أن عقولنا هى العقول الوحيدة التى نعرف أى شىء عنها .

وأيا ما يكونه العقل الآخر فإن المفروض أن يكون شيئاً ما مشابها لعقولنا ؛ وإلا

(*) الأنطولوجيا علم الوجود ، وهو أحد البحوث الرئيسية للفلسفة ، ويشمل النظر فى الوجود بإطلاق ، مجردا من كل تعيين أو تحديد . وهو عند أرسطو علم الموجود بما هو موجود ، وبهذا سمى بمبحث الميتافيزيقا العام ، ويترك البحث فى الوجود من نواحيه المختلفة للعلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية (المترجم) .

(**) الابستمولوجيا فرع الفلسفة الذى يبحث فى أصل المعرفة وتكوينها ومناهجها وصحتها (المترجم) .

فإننا لن ندعوه عقلا . وبالتالى فإن عقولنا ، العقول الوحيدة التى نعرفها منذ البداية ، هى المعيار الذى لابد من أن نبدأ به .

و«أنا» عندما أخاطبك «أنت» ، فإنى بذلك أدرج كلينا معا فى صنف أصحاب العقول . وعندما تكون هناك كلمة «نحن» فإنك لا تكون وحدك ؛ وتكون وحدانية، الأنا خطأ ؛ فهناك رفقة موجودة ، وهذا يبرز بوضوح بالذات إذا نظرنا فى بعض أوجه الاختلاف العجيبة :

«غادرنا طنطا فجراً ، واتجهنا فى طريقنا – أنا وشاحنتى لا غير» .

أمر غريب . إذا كان هذا الرجل يظن أن شاحنته رفيق له بكل هذه الجدارة بحيث تستحق أن تحتمى معه بمظلة من كلمة «نحن» ، فلابد من أنه وحيدا جدا . إما هذا ، أو أن شاحنته قد صنعت ولابد حسب الطلب بأساليب تجعلها موضع حسد أنصار الروبوتية فى كل مكان . وفى تناقض مع ذلك نجد أن «نحن – أنا وكلبى لا غير» عبارة لا تجفل لها مطلقا ، ولكن «نحن – أنا ومحارتى لا غير» عبارة يصعب أن تؤخذ جديا . وبكلمات أخرى نحن متأكدون إلى حد كبير من أن الكلاب لها عقول ، بينما نتشكك فى أن المحار له عقل .

الانتماء كأعضاء فى صنف الأشياء التى لها عقول يزود بضمانة مهمة كل الأهمية : ضمانة نوع معين من وضع أخلاقى فأصحاب العقول هم وحدهم الذين يمكنهم أن يبذلوا اهتماماً ؛ أصحاب العقول وحدهم الذين يمكنهم الاهتمام بما يحدث ، وإذا فعلت بك شيئًا لا تريدنى أن أفعله ، فإن هذا له مغزى أخلاقى . وهو مهم لأنه يهمك أنت . ولو كان للزهور عقول ، لأمكن أن يكون ما نفعله بالزهور مهما «لها» ، وليس فحسب مهمًا لمن يهتمون بما يحدث للزهور . وإذا لم يكن هناك أى شخص يهتم بالأمر ، فلن يكون ما يحدث للزهور مهما .

ومعظم الناس يوافقون على أن الشىء الذى يكون له عقل تكون له اهتمامات تهمه ، وهذا هو السبب فى أن الناس ينشغلون أخلاقيا جد الانشغال بمسألة الشىء الذى يكون له عقل : وأى تعديل يطرح فى وضع الحدود التى تحدد صنف أصحاب العقول يكون له دلالة أخلاقية رئيسية .

ونحن قد نرتكب فى ذلك أخطاء . فنحن قد نضفى عقولا على أشياء لا عقول لها ، أو قد نتجاهل شيئًا مفعما بالعقل موجودا وسطنا . ولكن هذين الخطأين لا يتساويان . فالمغالاة فى إضفاء العقول – كأن «تقيم صداقة مع» نباتاتك المنزلية أو أن تستلقى صاحيا فى الليل وأنت قلق بشأن عافية جهاز الكمبيوتر النائم على مكتبك – هذا يعنى على الأسوأ خطأ سخيفا من السذاجة بمكان . أما الضن

بإضفاء العقول – بأن نهمل أو نحذف أو ننكر الخبرة والمعاناة والبهجة والطموحات المخذولة والرغبات المحبطة لشخص أو لحيوان له عقل – فإن هذا خطيئة رهيبة . وعلى كلّ ، ما الذى ستشعر به «أنت» نفسك لو أنك عوملت كشيء غير حى ؟ (لاحظ كيف أن الخطاب فى هذا السؤال يروق لموقفنا «نحن» المشترك كأصحاب عقول) .

الحقيقة أن الخطأين كلاهما يمكن أن تكون له نتائج أخلاقية خطيرة . فإذا بالغنا فى إضفاء العقول (كما مثلا لو أدخلنا فى عقولنا أنه حيث أن للبكتريا عقول فإننا لا نستطيع أن نبرر قتلها) ، فإن هذا قد يؤدى بنا إلى التضحية باهتمامات الكثيرين من أصحاب الاهتمامات المشروعة – أصدقاؤنا ، حيواناتنا المدللة ، نحن أنفسنا – وذلك فى مقابل لا شيء له أهمية أخلاقية حقيقية . والجدل حول الإجهاض يدور حول مأزق مماثل تماماً ؛ فالبعض يظنون أن من الواضح أن الجنين الذى يبلغ عمره عشرة أسابيع له عقل ، والبعض يظنون أن من الواضح أنه ليس له عقل. وإذا لم يكن له عقل يكون الطريق مفتوحا للمحاجة بأنه ليس له اهتمامات أكثر مما يكون مثلا لساق مصابة بالموات (غنغرينا) أو لسن مصابة بخراج – فهذا عضو يمكن أن يُستأصل لإنقاذ حياة (أو لمجرد أن يتلاءم ذلك مع اهتمامات) صاحب العقل الذى يكون العضو جزءاً منه . أما إذا كان للجنين عقل بالفعل ، ما فإن من الواضح أنه سيكون علينا عندها النظر باعتبار لاهتمامات الجنين «داته» وكذلك أيضاً إلى اهتمامات عائله المؤقت . وبين هذين الموقفين لأقصى طرفين ، يقع المأزق الحقيقى : فالجنين سرعان ما سوف ينمى عقلا لو ترك وشأنه ، وبالتالى ، متى نبدأ فى حساب أمر اهتماماته «بالمنظور المستقبلى» ؟ وعلاقة امتلاك العقل بمسألة الموقف الأخلاقى علاقة واضحة على وجه الخصوص فى هذه الحالات ، ذلك أنه لو كان معروفا أن الجنين موضع السؤال يعانى من اللادماغية (عدم وجود مخ) فإن هذا يغير القضية تغييراً دراميا بالنسبة لمعظم الناس ؛ ولكن ليس بالنسبة لهم كلهم .

هناك ما تمليه الأخلاقيات هنا وما يمليه المنهج العلمى وكل منهما يشدنا فى اتجاه مضاد . فالسياق الأخلاقى هو أن نخطئ فى جانب المبالغة فى الإضفاء لنكون آمنين لا غير . والسياق العلمى هو أن نضع عبء الإثبات على الإضفاء . وإذا كنت من العلماء فإنك لن تستطيع مثلا أن «تعلن» فحسب أن وجود جزيئات الجلوتاميت (مادة أساسية فى الإرسال العصبى لها دورها فى توصيل الإشارات بين الخلايا العصبية) يصل بنا إلى أنه وجود للعقل ؛ وإنما سيكون عليك أن تثبت ذلك . ويختلف العلماء اختلافا جوهريا بشأن أى الأنواع الحية لديها أى صنف من العقول، ولكن حتى أشد العلماء حماسا فى مناصرة وجود وعى عند الحيوان ،

سوف يوافقون على أن يكون عليهم عبء إثبات ذلك – وهم يعتقدون أن فى إمكانهم القيام بذلك بابتكار وإثبات نظريات تبين أن الحيوانات واعية . على أنه حتى الآن لم تثبت أى نظرية من ذلك – هيا نفترض أن المسألة التى أمامنا ليست عن عقول الحمام أو الخفافيش وإنما هى عن عقول أفراد بشر من العسر ذوى الشعر الأحمر . سوف نحس بإساءة عميقة لو قيل لنا أنه يجب أولاً إثبات أن أفراد هذه الفئة من الأشياء الحية لديهم الوسيلة اللازمة للدخول فى صنف أصحاب العقول . وبالمثل سيحس أفراد كثيرون بالإهانة من طلب البرهان على امتلاك العقل عند أنواع غير بشرية ، ولكنهم لو كانوا أمناء مع أنفسهم لسلموا بأنهم هم أيضاً يرون أن هناك حاجة لوجود هذا البرهان فى حالة قنديل البحر مثلاً أو الأميبا أو زهرة الأقحوان ؛ وبالتالى فنحن متفقون على المبدأ ، وهم فحسب يمتعضون من تطبيقه على مخلوقات تشبهنا شبها كبيراً جداً . ونحن يمكننا أن نهدئ من هواجسهم بعض الشىء بأن نوافق على أننا فيما ينبغى نخطئ تماماً فى أى جانب فيه شمولية فى سياساتنا ، وذلك إلى أن تتضح الحقائق ؛ على أنه يظل هناك الثمن الذى يجب أن ندفعه من أجل أن نؤكد علميا فرضنا المفضل بشأن عقول الحيوانات ، وهذا الثمن هو مخاطر التفنيد العلمى .

الكلمات والعقول :

مما يتجاوز أى شك جدى أننا أنت وأنا لكل منا عقل ، كيف أعرف أن لديك عقل ؟ لأن أى فرد يمكنه أن يفهم كلماتى ، هو أوتوماتيكيا شخص أخاطبه بضمير «أنت» الذى استخدمه أنا ولا يهمه إلا ما يكون له عقل . وهناك أجهزة تعمل بالكمبيوتر وتستطيع أن تقرأ الكتب للأعمى : فهى تحول الصفحة من النص المرئى إلى تيار منساب من الكلمات المسموعة ، ولكن هذه الأجهزة لا تفهم الكلمات التى تقرأها وبالتالى فإنها لا تتلقى خطابا من أى «أنت» ممن تلقاه ؛ والكلمات تمر مباشرة من خلالها موجهة لأى ممن يسمع – ويفهم – تيار الكلمات المنطوقة . وهذه هى الطريقة التى أعرف بها أنك أنت ، أيها القارئ أو المستمع ، لك عقل . وكذلك فأنا أيضاً لى عقل . ولنا أن نعتمد فى ذلك على كلمة كل منا .

والحقيقة أن هذا هو ما نفعله روتينيا : فنحن نعتمد أحدنا على كلمة الآخر من حيث أن ذلك يحل ، بما يتجاوز أى شك يعقل ؛ مسألة ما إذا كان كل منا له عقل . لماذا ينبغى أن تكون الكلمات جد مقنعة هكذا ؟ لأنها تضع بصورة قوية الحل لأى شك والتباس . إنك ترى شخصا ما آتيا تجاهك وهو متجهم ويلوّح ببلطة. وتتساءل ، ما هى مشكلته ؟ هل سوف يهاجمنى ؟ هل أخطأنى على أنى شخص آخر ؟ هيا لتسأله . وربما يحدث أنه سيثبت لك أسوأ مخاوفك ، أو لعله سيخبرك أنه يائس من محاولة فتح باب سيارته المغلقة (والتى تقف أنت أمامها) وأنه قد عاد ببلطته

ليكسر النافذة . وأنت ربما لا تصدقه وهو يقول أن هذه سيارته وليست سيارة شخص آخر ، ولكنك قد ترى إجراء مزيد من الحوار ، ولابد وأن هذا سيبدد من شكوكك ويوضح الموقف بطرائق ، تكون كلها أمراً مستحيلاً لو كنت أنت وهو عاجزين عن التواصل الشفهى . لنفرض أنك ستحاول أن تسأله ، ولكن يثبت فى النهاية أنه لا يعرف لغتك . لعلكما بعدها ستلجآن إلى الإشارات والمحاكاة . وهذه التكنيكات إذا استخدمت ببراعة قد تصل بكما إلى تفاهم أكثر ، ولكنها بدائل متواضعة بالنسبة للّغة – هيا نتأمل فحسب كيف أنكما ستتلهفان معا للبحث عما يؤكد ما اكتسبتماه بصعوبة من تفاهم لو حدث ومر بكما مترجم يجيد اللغتين . سنجد أن تنقيله لأسئلة وإجابات معدودة سوف يزيل أى بقية من عدم التأكد بل أنه أيضاً سيضيف تفاصيل لم يكن فى الإمكان توصيلها بأى طريقة أخرى : «إن الشخص الآخر عندما رآك تضع يدك على صدرك وتدفع يدك الأخرى أماما ، ظن أنك تعنى أنك مريض ؛ وكان هو يحاول أن يسألك إن كنت تريده أن يأخذك إلى طبيب بمجرد أن يكسر النافذة ويسترجع مفاتيحه . أما تلك الحكاية عن أصابعه التى وضعها فى أذنيه فهى محاولة منه لينقل إليك كلمة «سماعة طبية» . ياه ، الآن أصبح كل شىء فى مكانه المناسب ، وذلك بفضل كلمات معدودة .

كثيراً ما يؤكد الناس على صعوبة الترجمة بين اللغات البشرية ترجمة دقيقة يعتمد عليها . ولا ريب أن الترجمة دائماً تعجز بعض الشىء عن التوصل للكمال ، إلا أن هذا قد لا يهم كثيراً فى المخططة الكبير للأمور . وقد تكون الترجمة الكاملة أمراً مستحيلاً ، ولكن الترجمة الجيدة أمر يتم إنجازه حقا فى كل يوم بصورة روتينية. والترجمة الجيدة يمكن تمييزها موضوعيا عن الترجمة التى لا تكون جيدة نوعا . وكذلك عن الترجمة السيئة ، وهى تتيح لكل أفراد النوع البشرى ، بصرف النظر عن العرق أو الثقافة أو السن أو الجنسانية(*) أو الخبرة ، أن يتحدوا وثيقا أحدهم مع الآخر أكثر مما يمكن لأفراد أى نوع آخر . إننا نحن البشر نتشارك فى عالم ذاتى – ونعرف أننا نفعل ذلك – نتشارك بطريقة تتجاوز كليا قدرات أى مخلوقات أخرى على كوكبنا ، لأننا نستطيع أن نتحدث أحدنا للآخر . وأفراد البشر الذين ليس لديهم (بعد) لغة يتواصلون بها يعدون استثناء ، وهذا هو السبب فى أن لدينا مشكلة بالذات فى استنتاج ما يكونه حال الوليد الحديث أو حال الأصم – الأبكم .

إن الحوار يوحدنا . ونستطيع كلنا أن نعرف الكثير عما يكونه حال صياد سمك نرويجى ، أو سائق تاكسى نيجيرى ، أو راهبة عمرها ثمانون سنة ، أو طفل عمره

(*) الجنسانية الجنس كذكر أو أنثى (المترجم) .

خمس سنوات وأعمى منذ ولادته ، أو أستاذ فى لعبة الشطرنج ، أو بغى ، أو أستاذ محارب . ونحن نستطيع أن نعرف عن هذه الموضوعات ما هو أكثر كثيراً مما نعرفه عن الحال لو كان الواحد منا درفيلا (إن كان هذا يحدث) أو خفاشا أو حتى شمبانزى. ومهما كان من اختلافنا نحن أفراد البشر أحدنا عن الآخر ؛ ومهما كنا مبعثرين فى الأرض ، فإننا نستطيع اكتشاف اختلافاتنا ونستطيع أن نتواصل معا بشأنها . ومهما كان من تشابه الوحوش البرية أحدها مع الآخر وهى تقف معا فى قطيع كتفا بكتف ، فإنها لا تستطيع أن تعرف شيئاً عن أوجه الشبه بينها ، دع عنك أن تعرف أوجه الاختلاف بينها . فهى لا تستطيع المقارنة بين الملاحظات . ومن الممكن أنها تحصل على خبرات متشابهة وهى جنبا إلى جنب ، ولكنها فى الحقيقة لا تستطيع التشارك فى الخبرات على نحو ما نفعل .

قد يشك البعض فى ذلك . أفلا تستطيع الكائنات الأخرى «غريزيا» أن يفهم أحدها الآخر بطرائق لا نستطيع نحن البشر فهمها جيداً ؟ لا شك أن بعض المؤلفين قد قالوا ذلك . وكما سوف نرى ، فإن الكائنات الحية البسيطة جدا قد تتناغم مع بيئاتها ومع بعضها بطرائق بارعة على نحو مذهل ولكنها لا يكون لديها أى إدراك لتناغمها ، على أننا نعرف «بالفعل» من الحوار أن أفراد البشر لديهم على نحو نمطى القدرة على الوصول إلى مرتبة عالية جداً من فهم أنفسهم وفهم الآخرين .

ونحن «نعرف أن الناس فى العالم كله لديهم إلى حد بالغ نفس أوجه الميول والنفور ، والآمال والمخاوف . كما نعرف أنهم يستمتعون باسترجاع الأحداث المحببة لهم فى حياتهم . ونحن نعرف أنهم كلهم يمرون بفترات تثريها تخيلاتهم اليقظة ، حيث يعيدون عن عمد تنظيم ومراجعة التفاصيل . ونحن نعرف أن لديهم وساوسهم وكوابيسهم وهلاوسهم . ونعرف أنه يمكن لشذا من عبير أو لواحد من الألحان أن يذكرهم بحدث معين فى حياتهم ، وأنهم كثيراً ما يتحدثون إلى أنفسهم صامتين ، بدون أن يحركوا شفاهم . وهذا كله معروف شائع منذ زمن يسبق طويلاً وجود السيكولوجيا العلمية ، ويسبق طويلاً وجود أى ملاحظات وتجارب مدققة حول أفراد البشر . وقد عرفنا هذه الحقائق عن الناس منذ زمن قديم ، لأننا نحدثنا معهم بشأنها حديثا طويلاً جداً . كما أننا لا نعرف عن الحياة العقلية لأفراد أى نوع آخر أى شىء يمكن مقارنته بذلك ، لأننا لا نستطيع أن نتحدث لأفراد الأنواع الأخرى بهذا الشأن . وقد يدخل فى ظننا أننا نعرف ذلك ، ولكن إثبات أو تفنيد ما لدينا من أوجه الحدس التقليدية أمر يتطلب إجراء بحث علمى .

مشكلة العقول التى لا تتواصل

من الصعب جداً أن نعرف ما يفكر فيه أحد الأشخاص إذا كان هو لا يناقش ذلك – أو كان لا يستطيع ذلك لسبب أو آخر . ولكننا عادة نفترض أن هؤلاء الأفراد غير المتواصلين يفكرون حقا – وأن لديهم بالفعل عقول – حتى وإن كنا لا نستطيع إثبات التفاصيل . وهذا أمر جد واضح ، على الأقل لأننا يمكننا بسهولة أن نتخيل أنفسنا فى موقف نثبت فيه على رفض التواصل ، فنظل طول الوقت نفكر فى أفكارنا الخاصة بنا ، وربما نتسلى بتأمل الصعوبات التى يعانيها من يرقبوننا وهم يحاولون استنتاج ما يدور فى عقولنا ، إن كان هناك ما يدور فيها . والكلام منهما كان وجوده أمراً حاسماً إلا أنه ليس ضروريا حتى نمتلك عقلاً . وهذه الحقيقة الواضحة فيها إغراء لنا بأن نستنتج استنتاجاً إشكالياً : فهناك إمكان لوجود كيانات تمتلك بالفعل عقولاً ولكنها لا تستطيع أن تخبرنا بما نفكر فيه – ليس لأنها مشلولة أو تعانى من الحبسة (عدم القدرة على التواصل الشفهى بسبب تلف محدود بالمخ) ، وإنما لأنها ليست لديها مطلقا أى قدرة لغوية . لماذا أقول أن هذا استنتاج إشكالى ؟

دعنا ننظر أولاً هذه القضية من حيث ما يكون فى صفها . لا ريب أن التراث والحس المشترك يعلنان أنه توجد عقول بلا لغة . ولا ريب أن قدرتنا على أن نتناقش مع الآخرين ما يدور فى عقولنا هى فحسب موهبة طرفية peripheral ، بالمعنى الذى يتكلم به المرء عن طابعة ليزر بالكمبيوتر على أنها جهاز طرفى (يستطيع الكمبيوتر أن يواصل الحوسبة دائماً بدون أن تتصل به طابعة) . ولا ريب أن الحيوانات غير البشرية – أو على الأقل البعض منها – لها حياة عقلية . ولا ريب أن أطفال البشر قبل أن يكتسبوا اللغة لهم عقول هم والصم – البكم النادرين الذين لم يكتسبوا قط لغة ولا حتى لغة الإشارة . فلا ريب فى أى من ذلك . كما أن العقول قد تختلف بدون شك بطرائق كثيرة يكون فهما جيداً أصعب من فهم عقولنا «نحن» – أى عقول من يستطيعون فهم حديث مثل هذا – ولكنها بكل تأكيد عقول «موجودة» . فطريقنا الرئيسى لفهم العقول الأخرى – وهو اللغة – لا يمتد إلى هذه العقول . ولكن هذا مجرد قصور فى معرفتنا وليس قصوراً فى عقولهم . وهكذا تظهر الآن إمكانية وجود عقول تكون محتوياتها غير متاحة منهجيا لفضولنا – أى لا يمكن معرفتها ، ولا يمكن تفحصها ولا يمكن اختراقها بأى طريقة بحث .

والاستجابة التقليدية لهذا المنظور المحتمل هى باعتناقه . حقا نعم ، إن العقول هى «الأرض المجهولة» النهائية التى تتجاوز ما يمكن لأى علم أن يتوصل إليه – وفى حالة العقول التى بلا لغة فإنها تتجاوز أيضاً أى حوار يتصف بالتقمص العاطفى . ثم ماذا ؟ إن فضولنا يجب أن يروضه شىء من التواضع . ويجب ألا نخلط الأسئلة الأنطولوجية (عما هو موجود) بالأسئلة الابستمولوجية (عن كيف نعرف شأنها) .

وينبغى أن نحس بارتياح من هذه الحقيقة المدهشة بشأن هذا الذى يكون خارج حدود التساؤل .

ولكن قبل أن نحس بالارتياح لهذا الاستنتاج ، سنحتاج إلى النظر إلى دلالات بعض الحقائق الأخرى عن قضيتنا نحن ، وهى دلالات تماثل ما سبق وضوحا . فنحن كثيراً ما نؤدى أشياء بارعة بدون أى تفكير مطلقاً ؛ وإنما نؤديها «أوتوماتيكيا» أو «بلا وعى» . فماذا يشبه الأمر مثلا عندما نستخدم معلومات من التدفق البصرى لأشكال فى أطراف مجال الرؤية ، حتى نضبط مدى خطوتنا ونحن نسير عبر أرض وعرة ؟ إن الإجابة هى أن هذا أمر لا يشبه أى شىء آخر . فنحن لا نستطيع أن نتنبه إلى هذه العملية حتى لو حاولنا ذلك . ماذا يشبه الأمر لو أننا مستغرقون فى النوم فيلاحظ الواحد منا أن ذراعه الأيسر قد أصبح مثنيا فى وضع يؤدى إلى إجهاد مفرط للكتف الأيسر ؟ إن هذا أمر لا يشبه شيئاً آخر ، فهذا ليس جزءاً من خبراتنا . وسوف يتزحزح الفرد منا سريعا وبلا وعى إلى وضع أكثر «راحة» ، بدون أن ينقطع نومه . ولو طلب منا أن نناقش هذه الأمور التى يفترض أنها أجزاء من حياتنا العقلية، لن نستطيع إجابة ؛ فأى مما حدث داخلنا للتحكم فى هذه السلوكيات البارعة لم يكن مطلقا جزءاً من حياتنا العقلية . وبالتالى ، فإن ثمة إمكانية أخرى ننظر فى أمرها ، وهى أنه من بين المخلوقات التى تنقصها اللغة ، يوجد بعض منها ليست لديهم عقول مطلقا ، ولكنهم يفعلون كل شىء «أوتوماتيكيا» أو «بلا وعى» .

والاستجابة التقليدية لهذا المنظور المحتمل أيضاً هى باعتناقه . حقا نعم ، بعض المخلوقات ينقصها تماماً أى عقل . ولا ريب أن البكتريا بلا عقل ، وكذلك أيضاً الأميبا فيما يحتمل هى ونجم البحر . بل ومن المحتمل إلى حد كبير أن أفراد النمل أيضاً مع كل نشاطها البارع هى مجرد أوتوماتات بلا عقل ، تجوس العالم متدحرجة بدون أدنى خبرة أو فكر . وماذا عن سمك السلمون المرقط ؟ وماذا عن الدجاج ؟ وماذا عن الجرذان ؟ قد نجد أننا لا يمكننا بتاتا أن نعرف أين نرسم الخط الفاصل بين تلك المخلوقات التى تمتلك عقولا وتلك التى لا تمتلكها ، على أن هذا هو مجرد وجه آخر من أوجه قصور معرفتنا التى لا يمكن تجنبها . وهذه الحقائق قد لا تكون فحسب معا يصعب الكشف عنه ولكنها قد تكون منهجيا مما لا يمكن معرفته .

ها نحن الآن لدينا نوعان من الحقائق التى يفترض أنها مما لا يمكن معرفته : حقائق ما يدور داخل أولئك الذين لديهم عقول ولكن ليس لديهم طريقة للتحدث عن أفكارهم ، وحقائق تدور حول أى الكائنات هى التى لديها عقول . وهذان النوعان من الجهل الذى يتجاوز قدراتنا لا يتساويان فى سهولة تقبلهما . وأوجه الاختلاف «ما بين العقول» قد تكون اختلافات لها خطوط رئيسية يسهل أن يميزها

الملاحظ الموضوعى ولكن تفاصيلها الصغيرة هى مما يصبح تحديده أصعب وأصعب – حالة من عائد متناقص بالنسبة للجهد المبذول . وما يتخلف لنا من أمور مجهولة ليس مما يعد أسراراً . إنما هى فحسب ثغرات محتومة فى كتالوج ، هو وإن كان كتالوجا غنيا بالمعلومات عن أوجه التشابه والاختلاف ، إلا أن له حدا متناهيا . وأوجه الاختلاف بين العقول ستكون إذن مثل أوجه الاختلاف بين اللغات أو بين أساليب الموسيقى أو الفن – لا تنتهى عند حد . ولكنها قابلة للتناول بأى درجة تودها من التقريب . أما الاختلاف بين من يمتلك عقلا ومن لا يمتلك عقلا مطلقا – بين أن يكون هناك شيء له رأيه الذاتى وأن يكون هناك شيء كله برّانى وليس جوانيا ، كقطعة من الصخر أو شظية مهملة من ظفر أصبح – هذا الاختلاف من الواضح أنه من نوع «كل شيء أو لا شيء . ومن الصعب جداً أن نتقبل فكرة أنه لا يوجد قط أى قدر إضافى من البحث يمكن أن يجعلنا نعرف ما إذا كان يوجد أى شخص ذو اهتمام» داخل صدفة جراد البحر مثلا أو وراء الواجهة اللامعة لأحد الروبوتات .

وعندما يقترح أن حقيقة كهذه لها أهمية أخلاقية ، يمكن أن تكون غير قابلة لأن نعرفها منهجيا ، فإن هذا الاقتراح أمر لا يمكن تحمله لا غير . فهو يعنى أن أيا كان ما نجريه من أبحاث ، فإنه يمكننا ، مع كل ما استطعنا معرفته ، أن نضحى بالاهتمامات الأخلاقية الحقيقية للبعض فى سبيل فائدة موهومة تماماً لآخرين بلا عقل . والجهل بالعواقب جهلاً لا يمكن تجنبه كثيراً ما يكون عذرا مشروعا عندما نجد أننا دون قصد قد نتج منا بعض الضرر فى عالمنا ، ولكن إذا كان لابد وأن نعلن منذ البداية أننا نجهل على نحو لا يمكن تجنبه نفس أساس كل التفكير الأخلاقى ، فإن الأخلاقيات تصبح شيئاً زائفاً . ولحسن الحظ فإن هذا الاستنتاج لا يمكن تصديقه بمثل ما لا يمكن تحمله . والزعم مثلاً بأن الأفراد العُسر هم أحياء أموات بلا وعى ويمكن تفكيكهم كما لو كانوا دراجات ، لهو زعم مناف للعقل ، وكذلك أيضاً على الطرف الأقصى الآخر ، يتنافى مع العقل الزعم بأن البكتريا تعانى، أو أن الجزر يستاء عند اقتلاعه بدون احتفاء من مثواه فى الأرض . ومن الواضح أننا نستطيع أن نعرف على نحو أكيد أخلاقيا (وهو كل ما يهم فى الأمر) أن بعض الأشياء تملك عقولا وبعضها الآخر لا يمتلكها .

ولكننا لا نعرف بعد «كيف» نعرف نحن هذه الحقائق ؛ وقوة حدسنا عن هذه الحالات لا تُعد ضمانا لمدى الوثوق بها . دعنا ننظر أمر حالات معدودة ، ولنبدأ بهذه الملاحظة لإحدى عالمات التطور إيلين مورجان :

إن ما يشق القلب فيما يتعلق بوليد جديد هو أنه منذ أول

دقيقة قد أصبح هناك شخص موجود . وكل من ينحنى على المهند ويحملق فى الوليد سيجده وهو يرد له حملقته .

وتصيب هذه الملاحظة الهدف مباشرة من حيث أنها تتعلق بالطريقة التى نتفاعل بها غريزيا ، نحن الملاحظون من البشر ، مع الاتصال بالأعين ، ولكنها فيما يتصل بذلك تبين كيف يمكن تضليلنا بسهولة . فنحن مثلا يمكن أن ننخدع فى هذا الصدد بروبوت . ففى معمل الذكاء الاصطناعى بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا جمع رودنى بروكز ولين أندريا شتين فريقا من علماء الروبوتية ومعهم آخرين وذلك لبناء روبوت شبه بشرى اسمه كوج . وكوج مصنوع من المعدن والسليكون والزجاج مثل الروبوتات الأخرى ، ولكن تصميمه جد مختلف ، ويشبه كثيراً جداً تصميم فرد من البشر ، بحيث أن كوج قد يصبح ذات يوم أول روبوت فى العالم له وعى . هل من المحتمل أن يوجد روبوت له وعى ؟ لقد ظهرت نظرية عن الوعى هى «نموذج المخططات المتعددة» (١٩٩١) ، وتتضمن أن الروبوت الواعى أمر محتمل من حيث المبدأ ، وكوج قد صُمم وفى ذهن مصممية هذا الهدف البعيد . إلا أن كوج حتى الآن لم يقترب بأى حال من أن يكون له وعى . فكوج لا يستطيع بعد أن يرى أو يسمع أو يحس مطلقا ، ولكن أجزاءه الجسدية تستطيع بالفعل أن تتحرك بطرائق شبه بشرية بلا أعصاب . فعيناه كاميرتان دقيقتان من كاميرات الفيديو ، «تختلج» سريعا لتركز على أى شخص يدخل الحجرة ثم تتبع هذا الشخص وهو يتحرك . وأن يتم تتبعك هكذا لهى خبرة غريبة مقلقة للراحة حتى ولو كنت تعرف بالأمر . ولو حملقنا فى عينى كوج بينما هو يرد الحملقة بلا عقل فإن هذا يمكن تماماً أن يكون مما «يشق القلب» عند غير الخبير ، على أنه ليس هناك أى شخص موجود – ليس بعد بأى حال ، وذراعا كوج ، بخلاف أذرع الروبوتات النمطية سواء الحقيقية أو السينمائية ، يتحركان حركة خفيفة مرنة مثل حركة ذراعينا؛ وعندما نضغط على ذراع كوج الممدودة ، فإنه يستجيب بمقاومة تشبه المقاومة البشرية شبها خارقا بما يجعلنا نريد أن تصرخ بأسلوب الفزع السينمائى الأصيل «إنه حى ! إنه حى !» إلا أنه ليس حيا ، ولكن الحدس بأنه حى حدس قوى.

وما دمنا نتخيل الأذرع ، هنا ننظر تنويعا لذلك له مغزى أخلاقى مختلف : بُتر ذراع رجل فى حادث رهيب ، ولكن الجراحين يعتقدون أن فى إمكانهم إعادة وصله. هذا الذراع وهو قابع فى مكانه فوق مائدة العمليات وهو ما زال لينا دافئا ، هل يحس بالألم ؟ (لو كان الأمر كذلك ينبغى أن نحقن فيه بعض دواء النوفوكين – خاصة إذا كنا نخطط لاستخدام مشرط لتخليص أى نسيج فى الذراع المبتور قبل

محاولة إعادة وصله) . سوف تجيب بأن هذا اقتراح سخيف ؛ فالإحساس بالألم يتطلب وجود عقل ، وطالما أن الذراع غير متصل بجسم فيه عقل ، فأيا كان ما نفعله للذراع فإن هذا لا يمكن أن يسبب أى معاناة فى أى عقل . ولكن ربما يكون للذراع عقل خاص به . ربما كان له دائماً عقله ولكنه فحسب غير قادر على التحدث معنا بشأنه ! حسن ، ولم لا ؟ إن الذراع يحوى داخله بالفعل عدداً له قدره من الخلايا العصبية التى ما زالت منطلقة بنشاط. ولو وجدنا كائنا حيا كاملا فيه كل هذا العدد من الخلايا العصبية النشطة سنتجه بشدة إلى افتراض أن هذا الكائن قادر على أن يخبر الألم حتى وإن عجز عن التعبير عن نفسه بلغة يمكننا فهمها . وهنا فإن ما نحدسه من التخمينات تتصادم : فهناك أذرع ولا تملك عقولا ، على الرغم من أنها تحوى الكثير من المواد والعمليات التى يجعلنا وجودها نميل إلى الاقتناع بأن بعض الحيوانات غير البشرية تمتلك بالفعل عقولا .

هل ما يُعتد به هو السلوك ؟ لنفرض أنك نخست إبهام ذراع مبتور وأنه رد بأن نخسك ! هل ستقرر عندها أن تعطيه دواء النوفوكين ؟ وإذا لم تفعل فلم لا ؟ هل لأن رد فعله هو مما يجب أن يكون رد فعل منعكس «أوتوماتيكى» ؟ كيف يمكن لك أن تكون متأكداً جداً من ذلك ؟ هل ما يحدد الفارق هو أمر يتعلق بتنظيم تلك الخلايا العصبية ؟

إن هذه الحالات الملغزة لمما يسلى عند التفكير فيها ، ونحن نتعلم حقائق مهمة حول مفاهيمنا الساذجة عن العقل عندما نحاول أن نستنتج . لماذا تنتظم تخميناتنا بالحدس بهذه الطريقة ، إلا أنه يجب أن تكون هناك طريقة أفضل للبحث فى أمر أنواع العقل – واللاعقول التى قد تخدعنا .

هناك إحدى الإمكانيات التى يجب علينا أن ننظر ما إذا كنا فى النهاية سوف نجد أو لا نجد أن هناك مجالا للبحث فيها ، وهى أن اللغة على كل حال ربما لا تكون جد طرفية هكذا بالنسبة للعقول . وربما يكون نوع من نحوزه من عقل عندما نضيف إليه اللغة عقلا جد مختلف عن نوع العقل الذى يمكن أن نمتلكه بدون اللغة ، بحيث أن تسميتنا للنوعين معا بأنهما من العقول نوع من الخطأ . وبكلمات أخرى ربما كان إحساسنا بأن ثمة أوجه ثراء فى عقول المخلوقات الأخرى – أوجه ثراء لا يتاح لنا «نحن» الوصول إليها ، ولكنها بالطبع متاحة لهم «هم» – ربما كان هذا الإحساس ليس إلا وهما . ومن المشهور عن الفيلسوف لودفيج ويتجنشتين أنه قال ، «لو تمكن أسد من أن يتكلم ، فإننا لن نتمكن من فهمه» . ولا ريب أن هذا هو أحد الاحتمالات ، ولكنه يصرف انتباهنا عن احتمال آخر وهو أنه : لو تمكن الأسد من أن يتكلم ، فسوف نتمكن من فهمه جيداً – مع استخدام صنوف

الجهود المعتادة للترجمة بين مختلف اللغات – ولكن أحاديثنا معه لن تخبرنا بأى شيء عن عقول الأسود المعتادة ، ذلك أن عقله المشغول بلغة سيكون جد مختلف عن ذلك . و«لعل» الأمر أن إضافة اللغة «لعقل» الأسد ستكون بمثابة «إعطائه» عقلا لأول مرة ! أو لعل الأمر لا يكون كذلك . وفى أى من الحالين ينبغى أن نستقصى هذه الإمكانية ولا نقتصر على أن نزعم ، حسب التراث ، أن عقول الحيوانات غير المتكلمة هى حقا مشابهة نوعا لعقولنا .

إذا كان لنا أن نعثر على بعض طريق بديل للاستقصاء ، فكيف يمكننا أن نبدأ؟ دعنا ننظر أمر المسار التطورى التاريخى . إن العقول لم كن دائماً موجودة . وإذا كنا «نحن» نمتلك عقولا ، إلا أننا لم نكن موجودين منذ الأزل . لقد تطورنا من كائنات لها عقول أبسط (إن كانت هذه عقول) ، وهذه تطورت من كائنات تمتلك عناصر أبسط مما نرشحه كعقول . وكان ثمة وقت ، منذ أربعة أو خمسة بلايين عام، حيث لم تكن توجد أى عقول مطلقا بسيطة أو مركّبة – على الأقل ليس فوق هذا الكوكب الأرضى . ما هى التجديدات التى حدثت وبأى ترتيب ولماذا ؟ إن الخطوات الرئيسية واضحة ، حتى وإن كانت تفاصيل التواريخ والأماكن هى فحسب ممكنه بالتخمين . ولعلنا سنحتاج إلى أن نميز العقول الحقيقية عن صنوف من العقول الزائفة أو العقول البدائية أو أشباه العقول . وأيا كان ما سنقرر إطلاقه على هذه النظم من الأسلاف ، فلعلنا سوف نتمكن من الاتفاق على مقياس يمكن به ترتيبها ، وأن نتفق على الظروف والمبادئ التى خلقت فى المكان الأول هذا المقياس .